الفصل الثاني عشر

الصيام والحج

نزلنا عند السيل الكبير حيث ميقات الحجيج القادمين من نجد أو عن طريقها، وهناك يبدلون ثيابهم للدخول إلى مكة. وبدورنا قمنا بخلع ثيابنا المتسخة المغبرة من رحلة نجد ولبسنا الإحرام بعد أن استحممنا في غرف صغيرة شيدت من الحجارة أعدت لهذا الغرض ونوينا بالعمرة قبل التقدم إلى مكة. وعند وصولنا إلى قصر المعابدة علمت أن الملك يجدد وضوءه استعداداً لدخول الحرم. وسرنا بسيارتنا إلى هناك لانتظار قدومه، وبذا استطعت لأول مرة القيام بالشعائر في معية الملك الذي كان يتقدمنا في الطواف بصحبة الشيخ عبدالله بن حسن إمام الحرم بمكة. وكان علينا بعد ذلك القيام بشعائر السعي بين الصفا والمروة، والهرولة بين الصفا والمروة سبع مرات على مسافة تقدر بنحو ٣٨٠ ياردة وتعادل في إجمالها أكثر بقليل من ميل ونصف. وكان الملك قد أعد للسعي سيارة يصطحبه فيها الشيخ عبدالله بن حسن. وكانت سيارته تمشي على سرعة القدم وكان من السهل علينا متابعتها. وعند الصفا والمروة ينزل من فيها مع الملك للتكبير والدعاء عند المصاطب المقامة على صخرتي الصفا والمروة اللتين ارتبطتا بالسيدة هاجر عندما كانت تبحث عن الماء لولدها إسماعيل عليه السلام. وبعد ذلك ذهبنا جميعًا للقصر لتناول الطعام المعد لنحو ٢٠٠ من الضيوف، ولكن الحضور كانوا ثلاثين فقط، لأن

باقي من كانوا مع الملك تشتتوا إلى ديارهم. وبعد العشاء غادر الضيوف ثم عاد الملك إلى أسرته.

وذهبت أنا لبيتي بجرول وخلدت للنوم لأرتاح، وأيقظوني في الساعة الثالثة صباحًا لأنضم لوزير المالية على الجانب المواجه من الشارع لتناول السحور لصيام أول يوم لي في رمضان، والذي صادف شتاءً بارداً خلال أيام يناير القصيرة. وعند الظهر أيقظني جرس الهاتف وكان المتحدث هو الملك ليدعوني للإفطار معه ويسأل عن حالي، وكان الإفطار تمراً وماءً وعدة أقداح من القهوة قبل صلاة المغرب، وبعدها نتوزع على عدة موائد للإفطار. بعد ذلك تنتظم جلسة مسائية مع الملك تنتهي نحو العاشرة والنصف. أما جلسات الصباح وبعد الظهر فقد كانت أمراً معتاداً في رمضان، وكانت تتخللها أحيانًا زيارة الملك إلى الحرم لصلاة التراويح وهي عشر ركعات وركعة واحدة للوتر مع الدعاء الطويل. وبعد ذلك يعود أهل مكة وجدة لأعمالهم التجارية ويحيلون الليل نهاراً إذ يبيعون ويشترون ويمارسون حياتهم الاجتماعية حتى ساعة السحور وصلاة الفجر، وبعدها يذهبون للنوم طويلاً ما استطاعوا لذلك سبيلاً. وهذه العادات لم تكن مطابقة لما يجري في بعض العواصم الإسلامية مثل القاهرة واستانبول. وتختلف في مكة عنها في نجد والبلاط الملكي حيث لا تتغير رتابة اليوم الرمضاني عنها في الشهور الأخرى. وفي أحد الأيام لم يحضر يوسف ياسين لجلسة الصباح، وأرسل الملك يدعوه إليه ويحكم عليه بالحضور للجلسة طيلة اليوم وبدون راحة لمدة ٦ أيام. ولكن باعتراف يوسف واعتذاره ووعده بعدم معاودة الغياب خفف الملك الحكم

عنه. وبالرغم من ذلك استطاع غير النجديين من أعضاء البلاط التفاعل والتأقلم مع عادات نجد ومواكبتها، وكانوا يقومون بأعمالهم اليومية وهم ناعسون. أما أنا فكنت استغل هدوء الليل لقضاء أعمالي.

تم قبولي شيئًا فشيئًا رغم أني لم أكن أتقلد منصبًا رسميًا في البلاط الملكي، ولكني أصبحت عضواً في مجلسه وأصبحت مهام الملك وهموم الدولة تناقش معي بصراحة بغية الوصول إلى القرار المناسب. وفي يوم من الأيام، على سبيل المثال، طلب مني الملك الاجتماع إلى يوسف ياسين للبحث عن السبل والطرق الكفيلة بجعل الصحافة البريطانية صديقة وغير معادية للدولة الوهابية فيما يتعلق بمشكلات مع العراق والأردن، خاصة الأخيرة التي كان المستر غلوب يقوم بسياسة معادية ومحرضة لولاء القبائل الحدودية وإثارة المشاكل للأمير تركي السديري أمير الجوف. ولم يكن الأمر صعبًا مع وجود اعتمادات مالية للمخابرات ويد طويلة لكسب البدو، الذين كانوا يعيشون على حد الفقر، لتحسين أوضاعهم وإيجاد مصادر رزق لهم. وكانت الحدود قد رسمت على الورق ولكن الخرائط كان قد تقادم عهدها وكان هناك خلاف حول الآبار وبعض النقاط التي لم تكن مطابقة لمواقعها على الطبيعة.

طلب مني الملك إعداد خارطة بالعربية استعداداً لزيارة نوري باشا رئيس الوزراء العراقي إثر برقية تلقاها الملك من فيصل ملك العراق.

لم تكن تلك المباحثات لتبدأ إلاَّ بعد نهاية رمضان. وكان الأمر يتعلق وقتها بمناقشة مسودة إتفاقية مع إيطاليا كان سيوقعها الأمير فيصل في روما

خلال جولته في أوربا في الصيف. وكانت بنود الاتفاقية تسير على نمط الاتفاقيات الدولية، ولكن الاتفاقية الموقعة مع بريطانيا في جدة عام ١٩٢٧م كانت تبشر ببعض المصاعب، إذ تذكر مثلاً أنه في حالة الخلاف في تفسير أي من بنودها فإن النص الإنجليزي هو المرجع. تمَّ ذلك تحت إلحاح سير غلبرت كلايتون، إلا أن حكومة نجد والحجاز رأت عدم الرضوخ لمثل هذه الشروط في أي اتفاقية قادمة مع أي قوى دولية. وافق السنيور سيزانو المفاوض الإيطالي، الذي أصبح لاحقًا أول وزير مفوض في البلاط الملكي، أن تكون اللغتان العربية والإيطالية مرجعان على حد سواء في حالة وقوع خلاف. وكانت العقبة الأخرى هي ورود عبارة "الدولة المفضلة" بدلاً عن "دولة إيطاليا" وكان هذا من غير الممكن قبوله؛ نظرًا لأن هناك امتيازات منحت لغير إيطاليا تحت "ظروف قاهرة" لبريطانيا، خاصة في موضوع الرق.

وكان أقصى ما يمكن منحه لإيطاليا ممثلة في مندوبها بجدة هو أن يتمتع بكامل الحقوق والامتيازات الدبلوماسية العالمية المعتادة وعلى أساس متبادل. وطلب ممثل إيطاليا إضافة بند يسمح بتعاون مشترك بين الدولتين لمحاربة الرق؛ ولكن طلبه قوبل بالرفض. وأُقترح أن يتم تبادل رسائل في هذا الشأن توضح طلب أحد الأطراف ورفض الطرف الآخر. وكان من الواضح أن الحكومة الإيطالية كانت تسعى إلى أن توضح للعالم أنها لم تفشل في عمل شيء محمود في سبيل هدف إنساني؛ ولكن الحكومة السعودية أجبرتها على الخضوع لموقفها. ولم يكن يوسف بذكائه يريد إقحام نفسه في أمر بمثل هذا التعقيد، ونصح السنيور سيزانو بأن الحكومة السعودية لن تسمح مستقبلاً

لأية قوى أجنبية أن تقحم نفسها في هذا الأمر، وقال سولازو: إن اتفاقية جدة سوف تراجع خلال سنوات وإذا وافق الإنجليز على إسقاط موضوع الرق منها فإن إيطاليا ستفعل بالمثل. وكان يوسف عازمًا على عدم تناول موضوع الرق نهائيًا في الاتفاقية أو في أي ملحق يتعلق بها.

كسب العرب المفاوضات حول كل نقاط الخلاف التي جرت في ذلك اليوم، وكانت وزارة الخارجية قد أعدت مسودة اتفاقية مماثلة مع فرنسا ليوقعها الأمير فيصل عند وصوله باريس خلال الصيف. ولكن فيصلاً كان قد أرهق نفسه خلال فترة غياب والده في الرياض وأثناء شهر الصيام مما أقعده لفترة طويلة إثر حمى انتابته. وفي فترة النقاهة ذهب في رحلة صيد إلى البر إلى سهول ركبه، أما نائبه في جدة، فؤاد حمزة، الذي ألقى على عاتقه كل ما يتعلق بإعداد الاتفاقية فقد كان يعاني من مرض في الكبد، وذهب للعلاج والنقاهة في لبنان ووقع الدور كله على يوسف ياسين إلى جانب عمله في المكتب السياسي في مكة.

طرأت مشكلة أخرى أكثر حدة تمثلت في الهبوط الحاد في العملة الفضية للمملكة، وكانت كل الدلائل تشير إلى ضرورة وجود حل عاجل للمشكلة وإلا فإن سعر العملة مقابل العملات الأجنبية سوف ينخفض انخفاضًا حادًا أثناء موسم الحج. وكان الصرافون وأصحاب المتاجر سيستغلون الحجاج لصالحهم لأبعد حد. وكان الريال قد أُدخل في التعامل قبل بضع سنوات بقيمة تعادل عُشر الجنيه الذهبي البريطاني، بقيمة فضية وحجم يعادل حجم الريال المجيدي التركي، قبل أن يصبح معادلاً للروبي الفضي الهندي والذي خفض بدوره. وكان الريال حينها قد بلغ قيمة قدرها ١٣ ريالاً للجنيه الذهبي

البريطاني الواحد. وبعد عودتي من زيارة قصيرة لجدة، سألني الملك عن الريال وطلب مني الانضمام إلى لجنة مصغرة للقيام بما يلزم لمنع هبوط الريال. وبعد مشاورات ودراسات تبين أن انخفاض الريال ناجم عن الاحتكار، وتم إصدار قوانين عقابية للصرافين والشركات التجارية (بما في ذلك البيوتات التجارية الأوروبية) والتجار، تنص بأن القانون سيطالهم في حالة رفض قبولهم الريال أو أجزائه الأصغر كالقرش، بقيمته المعروفة. وظهر لي أن هذه الإجراءات قد لا تأتي بثمارها، وإن كان لنا أن نحتفظ بقيمة الذهب منخفضة فلابد من منع تصديره. ولكن اقتراحي هذا لم يقبل، حيث إن اثنين من أعضاء اللجنة كانت مصلحتهما مرتبطة بتصدير الذهب لتمويل وارداتهم من البضائع من الهند ومناطق أخرى. وكان إرسال العملة المعدنية من الممارسات اليومية لتجار الحجاز في تلك الأيام تجنبًا لدفع الرسوم البنكية على التحويلات.

وكما هو متوقع فإن القانون الجديد لم يكن إلا بيانًا فارغًا منذ البداية، وتفاقمت مشكلة الريال أثناء موسم الحج وتسببت في مصاعب جمة وشكاوي عديدة. وكانت المشكلة نتيجة طبيعية لضعف الإدارة المالية، وبالتحديد كان معظم موظفي الدولة تجارًا، وكانوا يدرسون كل الاقتراحات بعين حريصة على مصالحهم الذاتية. ولم يتم فعل أي شيء لحل هذه المشكلة. ولم يكن خافٍ على أحد أن قيام موظفي الدولة بالتجارة لمصالحهم الشخصية أمر يتعارض مع المصلحة العامة.

وفي هذه الأثناء كانت المحاولات جارية لتهدئة الأوضاع المتردية بين مصر والمملكة، وكان حسن الأشموني مسؤول القنصلية المصرية في جدة في حل

وترحال دائمين حاملاً اقتراحات غير رسمية من كلا الطرفين لحل المشاكل دون إراقة ماء الوجوه. غير أن طموحات الملك فؤاد كانت حائلاً دون التفاهم. ولم تجد زيارة الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر في إصلاح ذات البين. وكان قد اجتمع عدة مرات مع ابن سعود، وعند عودته إلى القاهرة نشر بياناً من عنده يزعم أن ابن سعود لا يمانع في قبول الملك فؤاد خليفة للمسلمين. إلا أن ابن سعود لم يصرح له بذلك، وإنما ذكر أنه لا يمانع في قبول خليفة للمسلمين سواء كان الملك فؤاد أو غيره شريطة أن يقوم بواجبات الخلافة.

وتفاقم الوضع وأدى إلى المزيد من التردي بين ابن سعود والملك فؤاد إثر حادثة وقعت في نهاية رمضان. فدون أي اتصال سابق بالحكومة السعودية وصلت الباخرة «عايدة» إلى ميناء جدة بدعوى تحديد مواقع للعوامات والناقلات البحرية الخفيفة. وكنت قد سمعت من زوجة قبطان بريطاني كانت ستصحب زوجها في الرحلة مع أدميرال بريطاني في خدمة الملك فؤاد أن السفينة ستزور جدة. وأخبرت الملك بذلك وقتها. وكنت أستفسره من وقت لآخر عن موعد وصول السفينة «عايدة». وفي ٧ فبراير جاءني اتصال هاتفي من جدة بأن السفينة «عايدة» قد وصلت. وحين أبلغت الملك بذلك حدثت ضجة في قصر المعابدة. وبالطبع كان يجب على حسن الأشموني إخطار الحكومة رسمياً عن الزيارة لإصدار الإذن للسفينة. وزادت الشكوك عندما قيل إن وزير بريطاني على متن السفنية. ولكن أندرو رايان ممثل بريطانيا استنكر ذلك ونفى أي علم رسمي له بذلك.

وأمر الملك يوسف ياسين بتقصي الأمر من كل النواحي الرسمية والدبلوماسية، وصدرت الأوامر إلى جدة بعدم الاعتراف بوصول السفينة

واتخاذ الخطوات اللازمة لمقاومة أي عمل يتصل بمسح الميناء أو التجول فيه، وجاءت اعتذارات عديدة للحكومة السعودية عبر المندوب البريطاني، وانتهت المشكلة بأن أهدى الملك غنمًا وأرزًا وخضاراً بكميات كبيرة لطاقم السفينة كإفطار رمضاني.

ولما قارب رمضان نهايته بدأت العبادات تتركز في لياليه، خلافًا لما عليه الحال خلال الثلث الأول والثاني من الشهر حيث يكتفى بصلاة التراويح والوتر مباشرة بعد العشاء. أما في الثلث الأخير من الشهر فيشد الجميع المئزر توخيًا لليلة القدر (وقد تكون في السابع والعشرين أو التاسع والعشرين من الشهر) التي هي خير من ألف شهر، وتبدأ صلاة القيام حول منتصف الليل لمدة ساعتين بركعاتها الطوال. وفي أحد الأيام ذهب بعضنا إلى منى بعد الظهر وعدنا للقصر للإفطار وصلاة المغرب والعشاء مع الملك. صلينا المغرب ثلاثة ركعات كما هو معروف وبعده ركعتين سُنّة. وذهبنا بعد ذلك إلى الحرم لصلاة العشاء التي تسبقها تحية للمسجد ثم نصلي العشاء وركعتين سُنّة بعده. ثم صلينا التراويح عشرين ركعة ولم نصل الوتر ليأتي بعد صلاة القيام. وبعدها حضرت جلسة الملك المسائية ثم خلدت لبعض الراحة بمنزلي وعدت عند الساعة الواحدة صباحًا لصلاة القيام في القصر. كنا نصلي ركعتين تستغرق كل منهما عشر دقائق، ثم نجلس للراحة لمدة خمس دقائق يتخللها شرب القهوة والشاي، ثم نعاود الصلاة ونجلس لنرتاح قليلاً كالعادة حتى نكمل الصلاة ونختم بدعاء طويلاً لمدة ربع ساعة يتخللها تأمين من المصلين. وكان الإمام ضريراً سريع النبرة وقد استغرقت الصلاة نحو ساعتين، وحضر

عدد قليل منا السحور مع الملك ثم انصرف كل منا إلى مسكنه استعداداً لصلاة الفجر ثم النوم طويلاً. يلاحظ أن المسلم يمضي أربع ساعات من بين الساعات العشر بين الغروب والفجر في الصلاة، وبالتالي يمضي أربعين ساعة خلال العشر الأواخر من رمضان في الصلاة، وتلك عبادة صعبة لدرجة ما، ولكنها موسمية وليست بسهولة الصلوات الخمس المكتوبة في اليوم والليلة. كما أنها تطوعية وليست مفروضة، وقد حضرت القيام ثلاث مرات خلال العشر الأواخر، ولكن الملك كان مثالاً يقتدي به شعبه لأنه واظب على صلاة التراويح والقيام خلال كل شهر رمضان حتى أكمل الثلاثين يوماً.

ودار حديث في المساء عن رؤية هلال شوال بعد غروب شمس التاسع والعشرين وبعد دراسة كتب الفلك قلت بأن الهلال لن يظهر تلك الليلة، ولكن الملك أرسل بدويين حادي النظر لتحري رؤية الهلال من سقف قصر المعابدة. وعادا دون رؤية الهلال، وثار صخب في مكة حين ذكر شخصان أنهما رأوا الهلال وأرسلوا من قبل الملك للإدلاء بشهاداتهم برؤية الهلال أمام هيئة العلماء حيث رفضت شهادتهما. وحيث لم تعلن أية جهة أخرى رؤيته تقرر أن يكمل الصوم ثلاثين يوماً.

بعد انتشار اللاسلكي أصبح المجال أوسع لإعلان رؤية الهلال وصار في مقدور القضاة المحليين إثبات الشهادة وإعلام غيرهم بالرؤية وإن كان القرار في النهاية يعود للملك وشيوخ مكة أو الرياض. وكان من المعتاد سهولة رؤية الهلال في الشمال الغربي من المملكة خاصة في مناطق العلا وتبوك، وإن كان البعض يتشكك في ذلك. وهناك لهم طريقة معينة لرصد تحرك الهلال حتى

خلال النهار حيث يضعون ماءً في إناء ويرصدون انعكاس الشمس والقمر. فإن ظهر القمر خلف الشمس عند الظهر يبدؤون مراقبتهما حتى الغروب حيث يمكن رؤية الهلال إذا كانت السماء صافية. وطريقتهم كانت جيدة وذكية، ورغم نجاحهم لم يكن الناس يثقون في طريقتهم كثيراً.

وفي عام ١٩٥٠م على سبيل المثال، تكررت الشهادات من عدة دوائر بدعوى رؤية الهلا، ولكن الملك رفضها معتمداً على بصره هو إذ رأى الهلال في ذلك الصباح في سماء الرياض بنحو ساعة قبل شروق الشمس. وبذا كان يوم ١٨ فبراير هو آخر أيام رمضان. وكان صبيحة اليوم التالي عيد الفطر الذي يوجد له في كل مدن المملكة مصلى واسع لصلاة العيد ويتسع لكل المصلين غالبًا من الذكور بجماعات غفيرة لا تسعها المساجد. ولكن في مكة والمدينة يختلف الحال إذ يسع الحرمان كل المصلين بساحاتهما الواسعة بما في ذلك الحجاج. وتتم صلاة العيد بنحو ساعة بعد الشروق وكان هناك من المصلين نحو ٥٠٫٠٠٠ حين وصل الملك ليجلس في الصف الأمامي وعلى جانبيه جلس الشيوخ مستقبلين القبلة. وخلال الصلاة كان موسى وهو مولى كان قد أهداه أحد أشراف مكة للملك، يقف خلف سيده مدججًا بالسلاح. وبعد الصلاة خطب في الناس الشيخ عبدالله بن حسن وألقى خطبة لم يسمعها تسع أعشار المصلين. وفي تلك الأيام لم يكن محموداً استخدام مكبرات الصوت. وكان هناك عدد من جهوريي الصوت في كل المساجد الكبيرة ليرفعوا أصواتهم عند تكبيرات الإمام لإسماع المصلين. وعلى كل كانت مكبرات الصوت مركبة في الحرمين لراحة المصلين. وبعد الصلاة ذهب الملك

إلى مباني رئاسة الحكومة ليتلقى التهاني بالعيد والأمنيات الطيبة له في كل أحواله. وكان الناس يتدافعون للسلام عليه عبر كل الأبواب وتقبيل يده وأنفه وجبهته. وبينما تدافع الجمهور بهذه الطريقة جلس الخاصة والمسؤولون على الكراسي لتناول الحلوى والقهوة، وجلس الملك على كرسيه الملكي بعد أن ظل واقفًا طوال فترة استقبال زواره. وكان على جانبيه يجلس الشيوخ والشخصيات المهمة أمثال الشيخ عبدالقادر الشيبي حامل مفتاح الكعبة، والسيد أحمد السنوسي، أحد الهاربين من الاحتلال الإيطالي لشمال ليبيا.

وحدث خلال رمضان هذا أن تم احتلال واحة الكفرة أيضًا من قبل الإيطاليين وأخضعت لروما. وخلال أيام العيد الأربعة يتبادل أهل مكة تهاني العيد، وكانت الحياة هادئة آنذاك ورتيبة، وكان الرجوع للعمل بطيئًا. وفي القصر مررت بجماعة تناقش زيارة الملك لمدينة جدة، وكان من المقرر إنهاء اليوم بزيارة الجعرانة بينما تفرق أبناء الملك بروح العطلة لحضور حفلة كانت ستقام على شرف والدهم الذي كنا سنرافقه بعد صلاة الظهر. وعند وصولنا إلى القصر بلغنا بأن الملك قد ألغى الخروج لسبب لم نعرفه.

وكان ذلك محزنًا لصغاره وضيوفه الذين لم تكتمل فرحتهم بالوليمة والحفل خاصة الصغار منهم. وأمضى الملك بقية اليوم مع أسرته، وبعد قضاء اليوم الأول كان اليوم الثاني مخصصًا للجيران حول الحرم الذين يفترض أن يبقوا في منازلهم لاستقبال الزوار من أحياء المدينة الأخرى. وخصص اليوم الثالث لسكان الشامية وأجزاء أخرى من وادي إبراهيم. أما اليوم الرابع فقد خصص لأهل أجياد وجرول والمسفلة والمعابدة للبقاء في دورهم. وكانت هذه

الزيارات ذات طابع رسمي إذ يدخل الزائر إلى البيوت ويسلم على رب البيت وأبنائه ويجلس لبضع دقائق ويخرج بعدها بعد أن يناول قطعة حلوى من طبق الحلوى. وكان ما يعوِّض عن الرتابة في هذه الزيارات بعض المهرجانات التي تشمل عرضة البدو شبه العسكرية ورقصات الحرب والتي يقوم بها بعض القادمين من مختلف الأماكن. وكانت أفضلها ما تقدمه قبائل حرب المعابدة، وإن كان حراس الملك لا يمكنونهم من إتمام عرضتهم على الوجه الأكمل حيث يشاركهم الملك وبعض الأمراء. وكانت مشاركة الملك فرح مواطنيه به يعكس مدى الحب والتقدير الذي يكنه له جمهوره. وبدخوله تعالت الأصوات وبلغت العرضة أقصى مداها والملك وسطهم بارز الجسم وعالي الرأس وعليه أفضل الثياب. وارتفع سيف الملك عاليًا رمزًا لعظمته. وودّع جمهوره والسيف يلمع في ضوء شمس الضحى.

وبنهاية رمضان تتحول نشاطات الملك في جدة إلى مجال آخر، وهو الاستعداد لموسم الحج القادم. وفي ظل الركود الاقتصادي العالمي يتوقع أن يقل عدد الحجاج كثيراً عنه في الأوقات العادية.

في هذا الأثناء كنت قد تلقيت معلومات خاصة تفيد بأن بيرترام توماس قد نزل بظفار لعبور الربع الخالي، وفي أول مارس وردت أخباره في الصحف المصرية تفيد بنجاحه في مهمته. وعلى الفور بعثت له برقية تهنئة وسجلت في مذكراتي "أن توماس يستحق كل الإشادة التي ستقدم له. وأتمنى أن ينال لقب فارس بذلك الإنجاز العظيم". ولا أدري لماذا لم ينل ما تمنيت له. ولعل الملك لم يكن راضيًا بذلك الإنجاز؛ لأن توماس قد عبر مناطق تحت سيطرته

دون إذنه، وكان لتلك الواقعة انعكاسات سياسية خطيرة خاصة وأنها قد فتحت مساراً لطائرات السلاح الملكي البريطاني في العراق مع تلك التي تربض في عدن، كما فتحت المجال لدخول الربع الخالي من الجنوب. كذلك فإن الرحلة أعطت وقوداً لمطامع بريطانيا ومطالبها في جنوب جزيرة العرب تحت الخط الذي يربط بين الحدود الشرقية لعدن، المحمية البريطانية التي اتفق بشأنها مع الأتراك وشبه جزيرة قطر على جانب الخليج الفارسي. وفي إحدى الأمسيات كنا في جلسة المساء الخاصة، ودار الحديث عن هذا الموضوع، وعبرت للملك عن امتعاضي، لحد ما، من هذا الأمر، وخرج الملك من الغرفة غاضباً، واعتل مزاجه. ولامني الجميع إذ كيف أحادث الملك في أمر هكذا. فقلت لهم: أحياناً تكون هذه هي الطريقة الوحيدة التي تجعلنا نستشعره بالأمور الحيوية والهامة التي قد تؤثر سلباً على مصالحه وسلطته والتي قد تبدو أهميتها غير جلية في الوقت الحالي.

وكانت مسألة حدود الربع الخالي حتى يومنا هذا محل جدل وخلاف بين الحكومتين السعودية والبريطانية. إن حلها الآن أصعب بكثير عنه من قبل عشرين عاماً مضت، إذ تعقدت المسألة باحتمال وجود النفط في الربع الخالي. وفي الصباح عاودت الملك حالته الهادئة ومزح معي في ما حدث بالأمس قائلاً: "وأخيراً"، مشيراً إلى الإجراءات في بريطانيا وبعض برلمانات أوربا "فإن اجتماعنا هذا لم يكن مختلفاً عن تلك البرلمانات، فيما عدا أني المتكلم الوحيد وأنتم جميعاً تسمعون، عدا فيلبي فهو يمثل المعارضة!" وضحك الجميع وانتهى الأمر بسلام. وأصر الملك على أن يتم استكشاف الربع الخالي ومسحه تحت إشرافه وبأسرع فرصة ممكنة.

وفي نهاية شهر رمضان كان على الملك معالجة حادثة غير عادية، وهي أنه، ولمدة من الزمان، كان الوقود يسرق بكميات كبيرة للحد الذي يجب معالجته، وبدأت المراقبة المركزة على السائقين بالقصر تحت إشراف مهندس جعله الملك مسؤولاً عن قطع الغيار والوقود، وكان راتب السائق آنذاك ثمانية جنيهات ذهب في الشهر، تم تخفيضها بنسبة ١٥٪. وقاوم السائقون إثر ذلك بإضراب. وتناول الملك المسألة هذه بنفسه، وحكم بجلد كل منهم، وعددهم ٢٥ رجلاً، ثلاثين جلدة وطردهم من خدمته مع سحب رخص القيادة منهم وحرمانهم من العودة للعمل ثانية في المستقبل. أما الأجانب منهم فقد منعهم من دخول الحجاز ونجد ثانية. وكان جلهم من السودانيين والصوماليين مع بعض السوريين وآخرين ممن قدموا للعمل في المملكة عند ظهور السيارات فيها. وكان الوقت قد حان لتلقينهم ذلك الدرس الذي وعوه جيداً ولم يتردد الملك في اتخاذ قراره رغم جهود نسائه وأبنائه الذين دللوا السائقين وعليهم تقع المسؤولية فيما حدث. وكنت يوماً في قصر الحميدية بعد صلاة الجمعة حيث حضر الأمير فيصل لتنفيذ حكم والده على السائقين الذين قدموا في صف، لا يرتدون سوى السراويل، بين صفين من الشرطة الذين كانوا يحملون عصي الخيزران حتى انتهوا إلى ساحة طويلة أمام مبنى الحكومة وسط جمهرة من الناس. وبُطحوا على الأرض على مسافات ووقف رجال شرطة أمام كل سائق وضربوهم بالعصي حتى أكملوا الثلاثين جلدة، وبعدها رشوا مؤخراتهم بمادة معقمة. وتحمل الصوماليون الجلد دون إصدار أي صوت وساروا بعد انتهاء الجلد غير مبالين. غير أن زنجيًا ضخمًا من السودان كان جديراً

بالملاحظة فقد كان جلداً وصابراً وكأنه لم يجلد البتة ولم يحرك حتى جفنه. والبعض الآخر تألم وأصدر همهمة مع الضرب وطلبوا الرحمة واستغاثوا طالبين النجدة كلما تزايد وقع الجلد. كان ذلك نتاجاً طبيعياً للمعيشة الرغدة التي اعتادوها. ومن حسن الطالع أنهم كانوا سائقي القصر الذين ظلوا يتعاملون مع زملائهم في المهنة بازدراء ومع نظم القيادة باستهتار. وبعدها لم أسمع بأي إضراب للسائقين سوى إضراب لفنيي الكهرباء في القصر في الرياض قبل سنوات قليلة بحجة أنهم لم يكونوا يتسلمون رواتبهم. وأمر الملك آنذاك بصرف رواتبهم ولعدة شهور بأثر رجعي فوراً وكاملاً، وبعده عادوا لأعمالهم.

إن فتح المملكة أبوابها للسيارات لخدمة المسافرين والحجاج كان أمراً ضروريا، ولكن كانت له آثار سلبية إلى جانب إيجابياته، فالسائقون الوافدون من دول أخرى نشروا الفساد، غير أن أهل مكة وجدة غنموا الكثير من نقل الحجيج بالسيارات والشاحنات، وارتفعت أجور النقل للحد الذي كان الفرد يبيع فيه بيته ليشتري سيارة لنقل الحجيج، ونشأت شركات صغيرة عديدة لتعمل في هذا المضمار بحثاً عن الثراء، واستدان بعض الناس للإسهام في تلك العمليات، وأفلس البعض وانهارت تلك المؤسسات الواحدة تلو الأخرى. وعند تفاقم المشكلة قررت الدولة بيع ممتلكات المديونين لسداد ما عليهم للدائنين، وحدَّت من حركة الأفراد والجماعات للخوض في مثل هذه المغامرات، وكان لابد، تحت إشراف الحكومة ودعمها، من تأسيس شركة واحدة لتحتكر نقل الحجاج وبأسعار تحددها الحكومة. وفيما بعد دعت حاجة

الدولة لهذا النوع من الاستثمار وتشجيع القطاع الخاص للمساهمة في هذا المضمار. ولكن الشركة الحكومية ظلت تحتكر القيام بهذه الخدمات بصفة رئيسة. وكان قد سمح كذلك لشركات النقل الأجنبية بنقل الحجيج من الخارج إلى مكة بعد إجراء الترتيبات اللازمة مع الحكومة والسلطات السعودية المختصة. وتناقصت أرباح من أثروا في السنوات الماضية بسياراتهم عندما أصبح التنافس هو الغالب، وبدأت الأسعار تتدنى مع مرور الوقت. ونتيجة لعدم وجود قطع الغيار المناسبة والصيانة اللازمة ذهبت كثير من السيارات تدريجيًا إلى أسواق الخردة، مما دعا الحكومة إلى وضع مواصفات للسيارات التي يجب أن تستعمل في النقل وترحيل الحجيج. وحددت المواصفات وكان لي فيها دور كبير. وحازت شركة فورد بموجب تلك المواصفات على عقد لتوريد السيارات بصفة محتكرة إلى شركة النقل العربية، ونفذ ذلك في عام ١٩٣٣م، وكان من المحسوب له استمراره لمدة عشر سنوات، ولكن عدم القدرة على دفع المستحقات في تلك السنوات الصعبة مقابل الحاجة الماسة للسيارات آنذاك أدى إلى إنهاء العقد وديًا بعد مرور خمس سنوات فقط. ولم يتأثر أي من الطرفين بهذا الإجراء الذي أنهى عملاً كان ناجحًا، وقضت الحرب على تصدير السيارات وانتهى المشروع إلى الأبد.

وكان الملك يهتم شخصيًا بالصحة في مكة، حيث انتشر البعوض في أحيائها وبساتينها. وفي قصر المعابدة كان نظام الصرف الصحي ليس بالمستوى المطلوب، ولم يكن لهذه الخدمة أن تتجسد خاصة والسكان لا يعيرون الصحة اهتمامًا؛ مما جعل القصر مسكنًا طيبًا للبعوض الخطير الذي

كان الملك يشكو منه، وحين علم أن اتخاذ التدابير الصحية سوف يحل المشكلة طلب مني التعاون مع دكتور محمد وعلي الشواف مديري الصحة في الأحساء والمدينة، بذل الجهود اللازمة للقضاء على البعوض الضار. وقد مُنحنا السلطات اللازمة بإمكانات معقولة لزيارة كل أركان القصر وملحقاته الخارجية. وقد استغرقنا ذلك وقتًا ممتعًا ومسليًا حيث قمنا بجولات يومية مع الجواري نزور المراحيض والأحواض، وكان بعضها لا تسر رؤيته، وكنا نصب عليها الزيت لمنع توالد البعوض، وقمنا بإصلاح نظام الصرف الصحي بدقة تحت إشرافنا المباشر، وحفرنا آبارًا للمياه الآسنة وعالجناها بصب الزيت عليها، وبعد أيام كانت النتيجة إيجابية. ولكن كان لابد من الاستمرار في تلك المعالجة ولعدة شهور للقضاء نهائيًا على ذلك الشر. وكانت هناك حديقة بها أربعة آبار على الجانب الشرقي من القصر، كانت مصدرًا لتوالد البعوض، واقترحت على الملك شراءها، إذ لا تتجاوز قيمتها نحو ١٥ جنيهاً ذهباً، وما كان أصحابها يهتمون بأمور الصحة، وكان من شرائها فرصة للعناية بها حيث لم تجد العناية الصحية من قبل.

في ٢٣ أبريل أعلن الملك أن يوم الحج أو الوقوف بعرفة هو ٢٧ أبريل حسب الأخبار التي وردت برؤية هلال ذي الحجة مساء ١٨ أبريل. وزعم رجل في مكة أنه شاهد الهلال في ذات اليوم ولم يُقبل منه ذلك؛ لأن آلاف غيره كانوا يتطلعون لمشاهدته ولم يروه. وكنا قد قضينا عدة أيام مع الملك في تفقد منى ومزدلفة، وكان العمل يسير لتوسعة القصر ليسع الملك وعائلاته خلال أيام العيد السعيد الثلاث الأولى. واستعدت مكة لقبول الحجيج بعد

أن كانت فارغة لأشهر. وعملت المقاهي والمتاجر على الكسب وجذب الحجيج القادمين إلى عرفات ركبانًا ورجالاً وعلى الإبل والحمير التي كانت محملة، وهناك مئات وربما آلاف من اليمنيين الذين قدموا راجلين من اليمن وامتلأت شوارع مكة بمختلف الحجيج من كل البلدان. واستعدت البيوت لاستقبال ضيوف الرحمن، وملأت الخيام كل بقعة في الأرض الحرام، ونظفت منطقة الجمرات استعداداً لأداء مناسك الرجم.

وفي ٢٤ أبريل استضاف الملك نحو ٦٠٠ من ضيوف الرحمن لحفل استقبال رسمي، وكان على رأسهم أمان الله خان ملك أفغانستان السابق والأمير أحمد وحيد الدين من العائلة المالكة العثمانية الذي كان والده وحيد الدين أحد سلاطين تركيا وجده عبدالعزيز كان قد حكم تركيا قبل السلطان عبدالحميد. وقد انتهز أمان الله خان الفرصة للدعوة لنفسه وسط الأفغان وغيرهم ممن يهمهم أمره. ولكن الحكومة السعودية سارعت بمنع مثل هذه الأنشطة بحجة أن المسلمين وهم حاجون لبيت الله لا ينبغي استغلالهم لكسب سياسي أو عمل طائفي أو مذهبي، وحضر الأمير التركي أحمد وحيد الدين صلاة الجمعة بمصلى الملك، وكان يرتدي بذلة أوربية فاخرة من سترة وسروال وحذاء جلدي وقلنسوة على رأسه. وربما يكون قد عانى من لبسه هذا؛ لأن الأوربيين لا يحسبون حساب الجلوس على الأرض عند تفصيل لباسهم. أما الملك الأفغاني فكان يرتدي زيه الوطني لهذه المناسبة، وجلس جميع الزوار للعشاء في غرفة تتسع لألف شخص وجلس البعض على الكراسي في ثلاثة غرف، وكانت غرفة الاجتماعات قد خصصت للاستقبال بعد العشاء وصلاة العشاء.

وخلال حفل الاستقبال ألقيت القصائد والكلمات، أما حدث تلك الأمسية فقد كان كلمة الملك، والملك عادة لا يحب الكلام والخطابة. ولكنه في هذه المرة أثبت مقدرة وموهبة على الخطابة بصورة غير متوقعة، حتى ممن يعرفونه أكثر من غيرهم. لسبب ما أحس أن هذه المناسبة لها أهمية خاصة، فتحدث عن ضرورة الوحدة الإسلامية، وقد تكون في مخيلته الجفوة بين المملكة ومصر ومستقبل الخلافة الإسلامية، وهي القضية التي وقفت وراء الجفوة. وربما كان لوجود الأمير التركي الذي احتفظ آباؤه بذلك اللقب لأربعة قرون أثر في ذلك، جعله ذلك يخاطب القلوب.

وقد يكون ثمت سبب آخر هو وجود ملك أفغانستان الذي أضاع سلطانه بأن أدار ظهره للإسلام وشريعته وتابع الغرب، وتناول الملك ذلك بأن قال: هناك دول إسلامية تتبع الغرب وتهمل الإسلام، وسخر الملك من نشاطات مولانا شوكت علي الذي جاب العالم هنا وهناك تحت شعار "إخواننا اليهود والنصارى" وقال: إن شوكت قد ذهب بعيداً في ذلك ولا ينبغي أن يصدر هذا عن مسلم ملتزم بالدين، وقال: إن "الإسلام ليس دين ابن سعود ولا دين الشريف ولكنه دين الله" وأضاف: "من كان مخلصًا في رفعة هذا الدين فأنا عضده وعونه، ومن يعادي الإسلام فأنا ألد أعدائه، ولا أخشى في ذلك شيئًا، لا من جانب النصارى ولا غيرهم. ولكني أخشى فرقة المسلمين، دعونا نتحد ونتفق ولن يضيرنا عندئذٍ شيء وديننا هو الغالب بإذن الله".

وتحدث على هذه الشاكلة لمدة نصف ساعة، وقد أعجب الحضور بحديثه وجديته، وتخلل خطابه تصفيق الأيادي وإن كان العرب لا يحبون ذلك،

وكان خطابه حربًا قوية تليق بالمناسبة وتليق به كملك صادق وعادل، وعلى اعتبار الواقع كخليفة للمسلمين. لقد سبق أن حضرت عدة ولائم للحجيج، ولكني ما رأيت ابن سعود جاداً قائمًا يخطب الناس إلا في هذه المرة، إذ كان دوره لا يتعدى كلمات شكر قليلة للحضور على الكلمات التي يلقونها، حيث كان بعضهم يطيل ويسهب في الحديث. وبمرور الوقت لاحظت اختصار الوقت الذي يمنح للشعراء والخطباء ليتكلموا ويلقوا قصائدهم، فما كان الملك ليتحمس لتلك الأمور في مثل هذه المناسبات.

كان ذلك ما حدث خلال موسم الحج عام ١٩٣١م والأيام التالية التي أمضيناها في المراسيم الرسمية والتي لا أحتاج لوصفها هنا؛ لأني نشرت تفاصيلها كما عايشتها في كتابي "حاج في الجزيرة العربية[١]".

(١) وقد قامت مكتبة العبيكان بترجمته ونشره ضمن سلسلة مؤلفات فيلبي عام ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.